عقدة تليماك: الآباء والأبناء بعد غياب سلطة الأب [*]

عرض كتاب

محمود أحمد عبد الله[**]

هذا الكتاب من تأليف عالم النفس الإيطالى ماسيمو ريكالكاتى. وهو محلل نفسى معروف بإسهاماته المتعددة فى تحليل الأوضاع المعاصرة. هو واحد من تلامذة جاك لاكان، وألف عدة كتب تتناول العلاقة بين الأبناء والآباء، مستفيدا وناقدا للتراث الفرويدى فى الموضوع، وذلك فى كتب مثل "ما يتبقى من الأب؟ و"الأبوة فى عصر الحداثة المفرطة"، وكتاب "أرض الآباء بلا آباء"، وجميعها صدر بالإيطالية. ويعد من أشهر المتخصصين فى التحليل النفسى فى إيطاليا، وأحد أعضاء الجمعية اللاكانية الإيطالية، وعمل مديرا لمعهد أبحاث التحليل النفسى التطبيقى. وقد نال الكاتب شهرة واسعة. وركز عمله فى البداية على اضطرابات الأكل، ما دفعه للاهتمام بقضايا الإدمان والذعر والشعور بالاكتئاب. وتدور موضوعات أعماله حول: علم نفس الأمراض واضطرابات الأكل، دراسة أعمال المحلل النفسى الفرنسى جاك لاكان، ودراسة صورة الأب فى العصر الحديث، وتحليل العلاقة بين السياسة والقلق فى الحضارة المعاصرة، والعلاقة بين التحليل النفسى والإبداع. ولعل اهتمامه الأخير قد قاده للحصول على جائزة الروائى الأمريكى إرنست هيمنجواى عام ٢٠١٧. وهو لا يكتب بالإنجليزية، والعرض الحالى عرض للترجمة الإنجليزية للكتاب عن الإيطالية.

---

[*] Recalcati, Massimo, The Telemachus complex: parents and children after the decline of the father, Translated by Alice Kilgarriff, Cambridge, Polity Press, 2019.

** أستاذ علم الاجتماع المساعد، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية.

يتناول الكتاب قضية محورية وهى استعادة سلطة الأب، وبناء علاقة بالآباء تجعل من عودة الأب سبيلا لتحقيق الرغبات، على نحو يبنى علاقة بين الإنسان والتراث قائمة على التفاعل الحر، وليس على الإهمال المطلق للماضى واستبعاده، ولا الخضوع والانصياع الأعمى لتصوراته. وسوف يركز العرض الحالى على عدد من القضايا ذات الأولوية التى أشار إليها الكتاب باستفاضة.

أولًا: حول أفول الأب

ينطلق الكاتب من مفهوم كان قد صكه جاك لاكان، وهو "تبخر الأب"، عانيا به الغياب الكامل للأب كمصدر للمعرفة والسلطة وتوجيه الأبناء. هذا الغياب له من الأسباب السوسيولوجية الداعمة له فى السياق الغربى. وقد حاول الكاتب أن يدلل على ذلك من خلال بعض الأعمال السينمائية الإيطالية التى تلفت الأنظار إلى هذا الانهيار الواضح لسلطة الأب وما يوازيه من سلطات كسلطة رجل الدين ورجل السياسة.

يقول المؤلف بأنه لم يقم فى أعماله السابقة بوصف أزمة الآباء فى ممارسة سلطتهم على أبنائهم، ولكنه أبرز بشكل أكثر جذرية فقدان وظيفة توجيه الأبناء نحو المثل العليا فى حياتهم الخاصة والعامة. بتعبير أدق، لقد تبين له استحالة أن يكون للأب الكلمة الأخيرة فى مساعدة أبنائه على فهم معنى الحياة والموت، والخير والشر.

لقد تأسس هذا الغياب للأب مع التغير الكبير فى الحياة المعاصرة، الحياة الاستهلاكية التى يعتمد فيها النظام الاجتماعى على جعل المتعة هى المصدر الرئيسى للبقاء. لم يعد الصراع الرئيسى الذى كان موضوعا محوريا فى كتابات فرويد، هو الصراع بين الرغبة والقانون. فقد ساد خطاب رأسمالى يدعم الحرية المطلقة؛ الحرية بدون قانون، والتمتع دون قيود تحول دون نيل المرغوب فيه مهما كان. وأصبح القانون الجديد للعلاقات بين الأجساد هو

الممارسات السادية، ما يجعل من المتعة أمرا حتميا. وبدلا من الحديث عن التحرر من قهر الحياة، أصبح الحديث الآن أكثر عن استعباد الحياة، وخضوع الإنسان المعاصر لملذاتها المتدفقة.

وهكذا لم يعد ثمة سلطة حاكمة للفرد سوى قانون المتعة الدائمة والفورية والوقتية، المتعة دون ضابط. بل غدا التدخل المحتمل للسلطة: سلطة الأب، أو القانون، أو التعليم، هو تدخل يقف دون حرية الإنسان، تدخل يمنع التدفق الحر للمتع المتراكمة. وبطبيعة الحال، فإن هذا مدعوم بخطاب إعلانى وإعلامى يؤكد ضرورة وحتمية التمتع دون قيد.

كذلك يتأسس غياب الأب على فرضية أخرى لها أهميتها فى التحليل، وهى فرضية **الخلط بين الأجيال**. حيث يبدو أن البالغين "قد ضاعوا فى نفس البحر حيث فقد أطفالهم، دون أى تمييز بين الأجيال؛ إنهم يقيمون صداقات سهلة على مختلف الشبكات الاجتماعيـــة، ويرتـــدون ملابس مثـل الأطفــال، ويلعبون بألعابهم، ويتكلمون بنفس اللغة، ولديهم نفس المثل العليا". فالفكرة أن الآباء مع اقترابهم من أبنائهم واتخاذهم لهم أصدقاء، صاروا يعيشون أعمار أبنائهم. وكان جراء ذلك أن اختفت المسافة الفاصلة بين الأجيال. يضاف إلى ذلك أن التقدم التقنى فى طب التجميل، وفى الطب بشكل عام، قد ساعد على تكريس هذا الهدم للفواصل والأسوار المانعة التى تحول دون الخلط بين الشباب والكبار. فأصبح الأبناء يجدون آباءهم يقيمون علاقات صداقة وحب مع ذويهم. وأضحى من الصعب أن يجدوا آباء لهم يتحملون مسئوليتهم.

إن هؤلاء الآباء هم المحصلة النهائية للتربية النرجسية. هؤلاء الآباء هم الأبناء النرجسيون فى السابق. هؤلاء الآباء الذين يطمحون لمزيد من الملذات، ولا يتنازلون عن شبابهم، وعن حرياتهم، ويضحون بمسئولياتهم طالما سيكون فى ذلك تحقيق لأهوائهم الشخصية. لقد ذكرت إحدى الفتيات المصابات بفقدان

الشهية، بأنها وجدت والدها فى أوضاع لا ينبغى أن ترى فيها ابنة والدها عليها. لقد مثّل ذلك بالنسبة لها صدمة حالت دون القدرة على الأكل. بما يحمل ضمنا رغبة فى الموت. وكان العلاج يتمثل فى إعادة توجيه الأب نحو مسئولياته وطرق جديدة للتفاعل مع ابنته.

وهكذا يبدو فى الأفق طلب على حضور الأب وعودته. يقوم المؤلف بإعادة تأويل سلوك السرقة الذى تقوم به إحدى المريضات. الفتاة تسرق من محلات التسوق الكبيرة كل ما يتاح أمامها. إنها تعانى من إهمال والديها لها. ولذلك يفسر المؤلف سرقتها على أنها سرقة غير مقصودة فى حد ذاتها. إن عوائد السرقة غير مستهدفة، بل إن الهدف أعمق من ذلك هو "إظهار الذات أمام الآخر" والاستمتاع بخرق القانون والتحايل عليه. إنها تخترق القانون الممثل الرمزى للأب، لتثبت لذاتها بأنها موجودة، وأن وجودها مرهون بوجوده. هذه الفتاة لا تسرق لهدف السرقة بل لكى تجد من يقل لها "لا"، لا تقومى بهذا الفعل، لكى تجد "آخر" يدرك وجودها وينبهها إلى أن هناك قانونًا يحول دون ارتكابها لهذا الفعل المذموم. وكأن هذه الفتاة تقول: لماذا تخليتم عنى؟ لماذا لا ترونى؟ ولماذا لا تدركون أننى موجودة؟.

إن وجود الأب لا يعنى شيئا سوى تأدية الأب لمسئوليته، وبناء المسئولية فى وعى أبنائه؛ أن يحضهم على العمل والمواجهة. فالعمل وليس الكسل والتمتع هو السبيل لاستعادة الإنسان المعاصر لكرامته. يفسر المؤلف الأسباب التى دعت عددا من اليابانيين ممن تجاوزا سن الخمسين نحو القيام بالانتحار. لقد فقد هؤلاء المنتحرون وظائفهم مع الأزمة الاقتصادية التي ذاقتها اليابان نهاية التسعينيات. قام المنتحرون بإلقاء أنفسهم أسفل القطارات. أدى هذا لقيام شركة قطارات طوكيو بتركيب ما يسمى وقتها "المرايا المضادة للانتحار". كان علماء النفس يظنون أن وضع هذه المرايا له تأثير رادع، فعندما يرى

الرجال وجوههم تتخفف رغبتهم فى الانتحار. هذا الحل النرجسى لا يراه المؤلف حلا. فالمرآة الحقيقية هى التى تعيد الإنسان إلى المجتمع، إلى الأشخاص الذين يحبونه ويقدرونه. هذه المرآة التى تجعل هؤلاء الرجال يرون أنفسهم، يستعيدون صورتهم القديمة كجزء من مجموع، صورتهم التى حرموا منها، لأنهم فقدوا أعمالهم التى تمنحهم الكرامة والقيمة، وتجعلهم بشرا فاعلين.

ثانياً: أجيال الحياة المعاصرة: آباء وأبناء أربعة

لقد حاول المؤلف أن يقدم على طريقته تأريخا للعلاقة بين الآباء والأبناء فى السياق الغربى، عبر تصنيفها لأربع مراحل: المرحلة الأولى هى مرحلة ولادة الابن أوديب، مرحلة الحداثة فى طور تطورها نحو التخلص من التراث القديم والتقاليد وكل المؤسسات ذات الصلة. وتمثلت المرحلة الثانية فى مرحلة نشوء الابن النقيض لأوديب، وهى المتزامنة مع بناء وعى جديد لدى الشباب، ورغبة عارمة فى التغيير، مع ثورة الشباب فى الستينيات، التى شهدتها فرنسا عام ١٩٦٨. أما المرحلة الثالثة فهى مرحلة الابن نرجس، وهى الفترة التى تلت السبعينات، وبرز فيها صعود الفرد المستهلك الذى يقف بديلا للفرد المنتج، وكأن هذا الابن هو النقيض للابن أوديب الذى يصارع العالم ليصنع لنفسه وجودا حيا. ثم أخيرا تأتى المرحلة المعاصرة وهى مرحلة الابن تليماك الطامح لاستعادة الأب القوى لمواجهة عنف العالم المحيط به وعداوته. وهكذا يمكن استعراض المراحل الأربعة على النحو التالى:

١- الابن أوديب

هو الابن فى الأسطورة التى رواها سوفوكليس، الذى يعانى من الهجر. وتحذر نبوءة الكاهن الملك لايوس من أن ابنه أوديب سيكون ناكرا للجميل وسيقتله. ودفاعا عن نفسه من هذه النبوءة، يعهد الملك بالطفل إلى خادم ليقوم بقتله. ومع شعور الخادم بمشاعر الرحمة، سيفشل فى مهمته وينقذ حياة الطفل الذى

ينمو جاهلا كلية بأصله، ينمو شابًا وقويًا، ويتورط في نزاع عند مفترق الطرق. حيث ينازعه أحدهم فى منتصف الطريق حول من له حق المرور أولاً ؟ يدخل الشاب فى مبارزة مع الرجل الثرى الذى ادعى أحقيته بالأسبقية بحكم السن والفارق العمرى، ويقتله، دون أن يعرف أنه والده. سيصبح أوديب لاحقًا ملكًا لطيبة وزوج جوكاستا، زوجة لايوس ووالدته، التى سيكون له منها أطفالا سيكونون ثمرة فاحشة لسفاح القربى. سيكشف الكاهن تيريسياس، المتنبئ الأعمى، لأوديب الحقيقة التى لا يعرفها. تتداعى عليه الآلام، فيفقأ عينيه بيديه، ويتخلى عن أرضه، ويعيش فى المنفى. هذه الشخصية الأوديبية للابن، يرى المؤلف بأنها تنتمى لعصر يصل إلى نهاية السبعينيات، الفترة المصاحبة لموجة طويلة بدأت باحتجاجات كبيرة عام ١٩٦٨. وهو تمثيل رمزى للصراع بين الابن والأب، صراع من أجل الاستقلال والتحرر من سلطة الأخير الضاغطة، السلطة التى تحول دون تحقيق رغباته.

٢- الابن المناهض لأوديب

وهـو نمـوذج الابن الذي لن يرغـب فى الدخـول فى صـراع مع والده لأنه سيود أن يكون بدون أب، أن يكون يتيما بشكل جـذرى، ويكون هو نفسه أبا لذاته. إن رغبته فى تأكيد ذاته تجعله يرغب فى أن يكون بلا أى صلة بالآخر، أن يعيش دون ارتباط بالأب أو التراث، حرا طليقا، تتدفق رغباته وميوله وأهواؤه دون قيد.

المصدر الصريح لتلك الشخصية هو تلك الثقافة المعادية لأوديب التي تطورت فى السبعينيات بدءًا من إصدار كتاب صنع حقبة كاملة؛ وهو كتاب "أوديب مضادا" للفيلسوف الفرنسى جيل دولوز والمحلل النفسى فليكس جاتارى. يمثل الكتاب أقوى انتقاد من اليسار الفرنسى لتطبيقات التحليل النفسى ورؤيته النظرية. ولقد حشد هذا الكتاب جيلًا كاملاً، هو جيل ١٩٧٧، من أجل الثورة.

إنه ينتقد نقدًا سياسيًا التحليل النفسى ويشجع على قيام نظرية بديلة له (يطلق عليها "التحليل الفصامى"). ولقد تشرب كثير من الشباب من أبناء جيل السبعينيات فى الغرب فكرة الكتاب بحماس كبير. وتدور فكرته الرئيسية على أن التحليل النفسى يعلى من قيمة القانون المانع من تدفق الرغبة الإنسانية، وهو بذلك يحول دون التدفق السيال لهذه الرغبة.

٣- الابن نرجس

ونرجس كما هو معروف ذلك الشخص المفتون بصورته فى الماء. ويمثل فترة ما يسمى بفترة المد والجزر التى ميزت العقود الأخيرة حتى الأزمة الاقتصادية الكبرى التى اجتاحت الغرب. هذه الأزمة التى تشكلت جراء سلسلة من التحولات التى أثرت بعمق فى الحياة العامة. فلقد سعى الآباء نحو إبعاد أطفالهم عن الصدام مع العوائق، ومع كل ما لا يستطيعون فهمه واستيعابه، والحيلولة دونهم والظلم الذى يمكن أن يقع عليهم فى حياتهم، أى تطهير الأرض من كل العوائق وتمهيدها ليمر عليها الأبناء سالمين، دون أن يمنحهم حق تحمل المسئولية. ذلك الحق اللازم لبناء الإنسان، فينتهى بهم المطاف نحو تربية أطفال نرجسيين؛ أطفال سجناء فى رؤية براقة للعالم ولذواتهم ليس لها نظير فى الواقع.

٤- الابن تليماك وعودة الأب

إن أوديس تليماك فى ملحمة هوميروس هو ابن عوليس. يضطر الأب إلى التخلى عنه ليغادر إلى حرب طروادة. وسيبقى بعيدًا عن المنزل لمدة عشرين عامًا. ويعوق البحر ومزالقه عودة الأب إلى جزيرة إيثاكا. كان تليماك ينتظره دائمًا. ولكن الأمراء الشباب، البروسيون، يقومون بغزو منزل الأب وينهبون خزائنه، وينتهكون حرمة البيت، مما أجبر الجد على اللجوء إلى الريف، وكان هؤلاء الأمراء الشبان يتصرفون مثل الأسياد المتغطرسين فى منزل ليس ملكهم.

كان أكبر طموحهم هو الزواج من بينيلوب، والدة تليماك. ويُجبر تليماك على أن يشهد بعينيه مغازلة المحارم بلا حول ولا قوة. ولكنه ليس سوى منتظر عاجز. فيحاول اتخاذ عدة مبادرات لإنقاذ أرضه من عنف البروسيين. ويطلب المساعدة ثم يشرع فى رحلة خطيرة (وفيها يتعرض لمؤامرة بروسية لقتله) بحثا عن أخبار عن والده. وأخيرًا، عندما يتمكن الأب من العثور على أرضه ومقابلة تليماك فى الكوخ المتواضع للخادم إيمو، لن يتمكن الابن من التعرف على الأب الذى قامت الإلهة أثينا بتحويله بذكاء إلى شحاذ حتى لا يتعرف عليه أعداؤه. ولاحقا يتعانقان وينتهيان معا إلى الحصول على حقهم العادل وعلى النيل من البروسيين واحدا تلو الآخر.

إن الابن تليماك، على عكس أوديب، الذى تحول لأعمى، وعلى عكس نرجس الذي لديه عيون فقط يرى بها صورته، كان ينظر إلى البحر، يتطلع لعودة أبيه. عيناه مفتوحتان فى الأفق ولا يفقأهما، فهو ليس أعمى بالذنب بسبب رغبته الإجرامية، ولا يغويه سحر جماله العقيم. إنه، على عكس أوديب، لا يرى الأب عائقا، لا يعانى من صراع معه. وهو الوريث الصحيح. ينتظر الأب، وينتظر قانونه باعتباره سيكون قادرًا على استعادة النظام فى منزله المغتصب، المدمر، الذى انتهكه البروسيون. ويبحث عنه كمصدر لقانون عادل محتمل. وليس هناك شك، على الأقل في نظر المؤلف، أن الأجيال الشابة اليوم تشبه تليماك أكثر من أوديب. إنهم يطلبون حضور الأب، يطلبون عودته من البحر، يطلبون قانونا يمكن أن يعيد نظامًا جديدًا وأفقًا جديدًا للعالم. يبحثون عن القوة التى يفتقدونها فى بيوتهم ويجدونها فى أماكن أخرى.

ثالثاً: الوسطاء يمتنعون: المؤسسات الوسيطة وغياب دورها

تتوسط عديد من المؤسسات بين الفرد والمجتمع، مؤسسات الأسرة والمدرسة والعمل والقضاء، بحيث تمكن الفرد من الاندماج فى المجتمع والحياة على

أفضل نحو. وهكذا فإن هذه المؤسسات تلعب دور الوسيط، لكن هذه الوساطة اليوم باتت فى خطر حقيقى، برأى المؤلف. إذ يرى أن جميع المؤسسات تجد صعوبة فى الحفاظ على وظيفتها كطرف ثالث. ويضرب على ذلك أمثلة عديدة فى مجالات مختلفة. منها مثلا ما يقوم به الآباء من انحياز أعمى لرغبات أطفالهم ولو كان ذلك على حساب المؤسسة التربوية. فعندما يجد الآباء والأمهات أطفالهم وقد رسبوا فى سنة دراسية، تجدهم يتحالفون مع أطفالهم بدلًا من يقفوا فى صف المعلمين؛ فيقومون بتغيير المدرسة أو يرفعون قضية فى المحكمة الإدارية المختصة. وفى حقل النشر الفكرى يتكرر الأمر وبصيغة أخرى. فدور النشر بما تمتلكه من محررين وأدوات للنشر هى بمثابة الوسيط بين المؤلف الفرد والمجتمع. هذه المؤسسات الوسيطة تعانى فى الراهن مع ظهور شبكة الإنترنت. إذ يمكن لأى شخص أن ينشر كتابه على الشبكة دون الحاجة إلى المحررين الذى يقررون ما إذا كان هذا الكتاب يستحق النشر أم لا أو يطلبون إجراء التعديلات عليه.

كذلك لم تعد الصداقات الإنسانية بين الناس تقوم على مبدأ الاجتماع والتواصل اليومى المباشر، بل غدت تقوم فى مواقع التواصل الاجتماعى بين أشخاص لا صلة تربطهم اجتماعيا، ولا توجد مؤسسات تجمعهم معا لتنشأ هذه العلاقات عبر التعارف وتبادل الحديث وجها لوجه، بل إنها علاقات تقوم دون التعرف على الشخصية الحقيقية للأصدقاء الافتراضيين.

ويحدث غياب الوساطة فى حقل السياسة بصورة أوضح. فالسياسة التى تقوم بالأساس على التفاوض ونبذ العنف، والموضوعية فى السجال، أصبحت تقوم على استعمال العنف، وإهانة الخصوم وتجريحهم، أو التشهير بشخوصهم.

وفى هذا السياق، أصبح ملايين من الشباب فى حالة عزلة عن المجتمع والناس. أصبحوا بتعبير المؤلف مسجونين فى غرفهم، منعزلين بأنفسهم عن العالم المحيط بهم، ومكتفين بذواتهم.

وتعبيرًا عن هذه الأهمية التى يتمتع بها الوسطاء فى السياق الاجتماعى وفى علاقات التعلم، يتذكر المؤلف مدرسًا قديمًا له فى المدرسة الابتدائية اعتاد أن يكرر استعارة تربوية معروفة أمامه: "أنت مثل شجرة الكروم التى تنمو ملتوية، منحنية، ملفوفة على نفسها. وأنت فى حاجة لعمود وسلك لربطك، وهذا السلك يجعلك تنمو بشكل مستقيم. سأكون لك هذا العمود وهذا السلك! ". ولكن قبل احتجاجات عام ١٩٦٨، جرى التعامل مع مهمة التعليم على أنها عملية قمع للتشوهات والشذوذ والانحرافات، تلك التى تجعل الحياة فريدة. ولذلك غابت اليوم هذه الاستعارة النباتية القمعية بشكل كبير ولم تعد توجه الخطاب التربوى. اليوم لم يعد هناك استعمال للأعمدة المستقيمة والأسلاك الحديدية التى تصحح التواءات الحياة وانعطافاتها. أصبحت المشكلة هى نقص الرعاية التي يظهرها البالغون تجاه الأجيال الجديدة. وما نجده هو تهشم كل خطاب تربوى اعتبرته أيديولوجيا الإفراط فى المتعة شيئا قمعيا وأمرا لابد من التخلص منه بقدر الإمكان.

وفى الآن ذاته بزغ دور التكنولوجيا الرقمية الذى أدى إلى تغيير مسار المسئولية المحددة للمؤسسات التقليدية، مؤسسات الوساطة التربوية. إذ يمكن للأبناء الوصول دون وساطة ثقافية إلى المعرفة بلا حدود، المعرفة التى يمكن الوصول إليها بسهولة مع شبكة الإنترنت. وفى نفس الوقت يكونون أقرب لآبائهم كأصدقاء، كمخزن لأسرارهم. لقد أصبح الواقع الجديد يفرض شكلا مقلوبا للعلاقات. فالآباء يعتمدون على أبنائهم فى حياة المراهقة التى يستسلمون لها. إن الآباء هم الذين يعتمدون على أبنائهم للبقاء فى مرحلة المراهقة، فهم

مصدر المعرفة والتعرف على نمط الحياة التى ينتهجها الشباب اليوم. وهكذا أصبح قانون الكلمة محكوما من طرف الأبناء، فهم الذين يقررون ما الذى يجب القيام به، ولم يعد الأمر كما كان سلفا.

رابعاً: استعادة الميراث : العلاقة المتجددة بالتراث

إن استعادة الإرث ليس "يبنى المرء نفسه بنفسه" أبدًا بمعنى تملك الإنسان لنفسه، وأن يكون متسقا، وأن يتخفف من غيرية الآخر غير المناسبة، بل إن الميراث على الأحرى اعتراف بأصلنا وبديونه الرمزية. فليس الميراث تملكًا لدخل، بل هو استعادة مستمرة. لذلك يتزامن مع الوجود نفسه، ومع إخضاع وجـــودنا الـــذى لا يكتمل أبـــدا. ونحـــن لسنا أكثر من مجموعـــة من الآثـــار والانطباعات والكلمات والمعانى التى أتى بها الآخر وتربينا عليها. فلا يمكننا أن نتحدث عن أنفسنا دون التحدث عن الآخرين، عن كل من قرروا حياتنا وصنعوها وأنتجوها وأضفوا عليها ميزة وجعلوا لها قالبا. ونحن كلمتنا، لكن كلمتنا لن تكون موجودة لو لم تتشكل وتصاغ بفعل كلمات الآخرين الذين تحدثوا إلينا. وقانون الكلمة يصادق على وجود هذا الدين الرمزى عند نطق الكلمة. فيتحقق لكلمتى إمكانيتها بوجود اللغة التي تتسامى عليها والتى يجب أن تكون قادرة على نقش نفسها لتكون موجودة فى تفردها. وفعل الكلام هو دائمًا ملك لى، لكنه دائمًا ما يكون كذلك لأنه يستعيد بشكل متفرد الوجود المطلق للغة الآخر. فالحياة ليست سوى تعلم الإنسان لكيفية الحديث عبر كلمات الآخرين.

وبالتالى لا يمكن أن يكون الميراث إلغاء لكلمة الآخر وذاكرته – إلغاء للدين الرمزى الذى يربطنا بالآخر– وليس تكرارًا سلبيا لهما. فهو بحسب ما يخبرنا به فرويد مقتبسا من جوتة، هو أثر استعادة ما كان.

إن المؤلف يرسم ملامح استعادة الميراث عبر النظر فى مسارين متعارضين؛ مسار الاستقلال عن التراث، وتربية النفس على تحمل المسئولية، ومسار التماهى مع التراث، وهو ما ينفيه: لا يمكن اختزال الميراث إلى تكرار ساذج للماضى، حركة سلبية من استيعاب ما كان بالفعل. فالوراثة ليست استنساخًا لما حدث من قبل. فالأحرى أن تكرار الماضى، والإفراط فى التماهى معه، والتعلق به، والاغتراب عنه، واستيعابه السلبى أو تبجيله، هي جميعا طرق يفشل فيها فعل استعادة الميراث

ويضرب المؤلف مثالين على ذلك المسار الأول من سيرة السيد المسيح والآخر يأخذه عن نيتشة. لقد طلب أحد حوارى المسيح أن يذهب لحضور جنازة والده، فقال له السيد المسيح: "اتبعنى ! ودع الموتى يدفنون موتاهم". يقوم المؤلف بتأويل ذلك على أنه استقلال الشباب عن آبائهم، عن الماضى الذى يقيدهم بقيوده ورؤاه وفلسفته، ليصنعوا هم رؤيتهم الخاصة. أما مثال نيتشة فيتصل برفض التذكر، تذكر الماضى والعبودية له. أن يكون الإنسان أسيرا للماضى، مقيدا بأمجاد أجداده، دون أن يصنع تاريخه الخاص. يتأكد هذا المعنى بالعودة إلى أحد الفنانين التشكيليين، وهو فرانز كلين. لقد رأى هذا الفنان أن من الضرورى امتلاك معرفة دقيقة بتاريخ الفن، أى من الضرورى المعرفة بالماضى، أن نعرف ماضينا لتجنب التكرار. فالحب المفرط للماضي سوف ينتهى بنا إلى استحالة وضع أعمال إبداعية أكثر فرادة وإبداعية. إن القدرة على النسيان هنا ضرورة، إذ بقدر ما يتذكر المرء ماضيه، بقدر ما هو فى حاجة أن ينساه لكى يصنع أسلوبه الخاص، ويحقق جدارته.

ولكن المؤلف يدرك المأساة المترتبة على الفهم الذى يجعل من عملية استعادة الميراث والتعامل مع التراث كفقدان للذاكرة، عملية تعنى نكران ونفى أهمية الدين الرمزى للآباء، وإنكار فهم وتفهم ما قدموه من أعمال حية لا تزال.

إن هذه الممارسة النرجسية، التى يعتقد فيها الإنسان أنه ابن نفسه، ولا أساتذة أو آباء له، إلغاء للماضى. هنا يذكر المؤلف القارئ بالحكاية الرمزية الواردة بالإنجيل (والواردة بالقرآن أيضا) حول قتلة مزرعة العنب. وهى حكاية تظهر لنا البعد الإجرامى لرفض الميراث ونتائجه الكارثية؛ حيث لا يعترف المزارعون الذين استأجروا مزرعة الكروم بالإيجار المتعاقد عليه. ولم يكتفوا برفض دفع ما عليهم، ولكنهم ضربوا وأهانوا خدم المالك المرسلين لتحصيل الإيجار. وعندما يقرر مالك مزرعة الكروم أن يرسل "ابنه الحبيب" – وهى إشارة رمزية واضحة إلى حياة المسيح – معتقدًا أن المزارعين سيعاملونه على الأقل باحترام كبير، لكنهم يقتلونه بلا رحمة. "قال هؤلاء المستأجرون لبعضهم: ها هو الوريث، قادم، هيا لنقتله، وسيكون الإرث لنا "وسرعان ما طردوه من المزرعة ثم قتلوه".